قصة
قصيرة

الضابط

الى « ريا »

نيروز مالك

أ ـ الاطفال

عزيزي القارىء : سأسرد عليك هذه القصة رغم اني غير بارع في سرد القصص ، والسبب في ذلك ، هو عدم قدرتي على ترتيب الامور وتدبيجها باسلوب ادبي مرض ... كنت أفضل لو يسردها عليك قصاص ما ؛ ولكن ... لو ان الامور لم تصل بنا الى هذا الحد ؛ بحيث بات ارجاؤها امرا مستحيلا ، كنت انتظرت عودة صديقي « نيروز مالك » من مهمة العمل التي يقوم بها حاليا على الخطوط القديمة للسكك الحديدية ، بغية اصلاحها ؛ لاوليته مهمة السرد والتدبيج للقصة ؛ فهو قصاص شاب ، لا ادري ان كنت قد سمعت باسمه أم لا ؟

ولكن الامر ، كما قلت منذ برهة ، لم يعد التأجيل بمفيد ؛ لذا سأضطر الى سرد القصة بنفسي عليك ... فأرجو مسبقا ان تعذرني ان وجدت اسلوبي في سردها غير موفق .

« وصف مشهد طبيعي »

الى جانب الازهار والورود واشجار الدلب والسرو واشجار « المستحية » المتهدلة الاغصان والاوراق ، والى جانب المراجيح والمزحلقات المعدنية الطويلة والقصيرة والملاعب الرملية المستطيلة والدائرية والمربعة ؛ والى جانب الاحصنة الخشبية الملونة والكراسي المتحركة ... الى جانب كل هذه الاشياء ، كانت مجموعة من الاطفال تلعب داخل القسم المخصص لهم من الحديقة العامة .

« مشهد وصفي آخر »

امامنا الان ؛ عالمان يضجان بالحركة والحياة . وكثيرا ما كان هذان العالمان يتداخلان ويمتزجان ، ليصبحا عالما واحدا مكونا من تبادل اللعب بين الاطفال، والمشاركة في بناء البيوت الرملية ، وركوب الخيول الخشبية ، فيعلو التزقزق والضحك الرفيع الحاد المصحوب بالخجل من جانب البنات الصغيرات . بينما كان الصبيان يتعاركون على الرمل ، ويتزاحمون لامتطاء مهرة خشبية محدوة . اما المجموعة الثانية ، فكانت قريبة من الاولى ، تكاد تلاصقها . كان صبيان وبنات المجموعة الثانية ، يلعبون لعبة « عسكر وحرامية » ، واحيانا اخرى تنقلب اللعبة الى « الاستغماية » . أما المجموعة الثالثة ، فهي ايضا قريبة من المجموعتين الاولى والثانية بحيث لو القى المرء نظرة سريعة عليهما لما استطاع تمييزها عن المجموعتين الاخريين ، بل ظنها مجموعة واحدة لا غير .

كانت المجموعة الثالثة ، تلعب بالعاب مشتركة ، مثل الدائرة ... حيث يتماسك الصبيان والبنات بالايدي ويدورون حول انفسهم ، وهم يعدون من الواحد الى

العشرة ، ثم يضربون الارض باقدامهم الصغيرة ، فيثبتون في اماكنهم ، ولا يلبثون ان يتابعوا اللعبة والعـــد مرة اخرى .

كان الضحك والضجيج يعلو فوق رؤوس الصغار، ثم تنطلق النداءات باصوات رفيعة على كثير من الاسماء ... مثل نادر ، ريا، سعيد ، غصون. الخ ، اماحركتهم، فلا تستطيع حصرها ، او ايقافها ، انها اشبه بحركـة الحيـاة .

« مشهد وصفي ثالث »

لو دخلنا بطريقة غير مرئية الى حديقة الاطفـال، لرأينا « ريـا » الصغيرة تركض وراء نادر الراكـض نحو سور الحديقة ، وهو يضحك مزقزقا كالعصفور الدوري، بينما كانت « ريا » تهتف به : اعد الي لعبتي ... ولكن « ريا » الصغيرة هذه لم تستمر في ركضها ، فتسمرت في مكانها . كما كان نادر قد تسمر مكانه قبلها ببرهة . ما لبث الاطفال ، جميعا، ان تسمروا في اماكنهم بحركات متتابعة ، بينما راح الصمت يخيم عليهم رويدا رويدا ، وهم ينظرون باتجاه سور الحديقة الغربي ... حيث كان رجل بلباس عسكري ، واقفا ، ينظر اليهم بنظرات باردة كالموت .

٢ ـ الحب .

لا استطيع القول : ان صديقنا « نيروز مالك » قد غشني عندما وضعت بين يديه قصة « الحب » بعـــد عودته من مقر عمله خارج المدينة . كنت قد وجـــدت صعوبة كبيرة في كتابة مسودة وقائع القصة ... ولكن الامر الذي ازعجني في اوله، هو انني كنت قد طلبـت اليه ان يكتب القصة التي سردتها عليه باسلوب شفـاف مليء بالاحلام والعواطف من جهة ، ومن جهة ثانية ان يرسم بشكل سريع مرور عسكري بعاشقي قصة «الحب» فيعكر بمروره الى حد ما ، اللقاء بينهما . اما صديقنـا « نيروز » ، فانا لا انكر انه التزم بما اشرت اليه فـي كتابة القصة ، ولكنه اضاف بعض الامور اليها، كنت اود ان تظل بعيدة عنها . مثل : تفصيلات عن احوال العاشق المعاشية لدرجة بلغ به الميل الى القول : ان العاشق فقير، فهذا الامر ، برأيي ، يثير الاسى في نفوس القراء ، وهذا ما لم ارغبه في القصة ، ولكنه بعد ان وضعنا « نيروز » تحت الامر الواقع ، فلا حيلة لي ، الا ان اقدمها لـك كما ارادها هو ، لا كما اردتها انا .

« وقـائع قصة « الحب »

خرج شاب .../ولكي نضع النقاط على الحروف ، لنتخذ للشاب اسما ، وليكن نادر ... طبعا هذا ليـس له علاقة بالطفل الذي كان اسمه نادر في وقائع قصـة «الاطفال» ، السابقة ... / خرج نادر ، كما اتفقنا أن نسميه ، من البيت ، وهو قلق، لانه كان قد تأخر عن موعده مع فتاته . كان قد وعد ان يلاقيها في السـاعـة العاشرة الصباحية في الحديقة ... / لنسم الحديقـة أيضا، رغم قلة الحدائق في مدينتنا... الحديقة العامة/ كانت الساعة تشير الى العاشرة الا ربعا ، فلو سار على قدميه ، لكان بحاجة الى اكثر من نصف ساعة للوصول الى مكان الموعد ، واذا انتظر الاتوبيس ، قد يمر اكثر من ربع ساعة قبل ان يأتي الاخير، وان اراد ركوب التاكسي، لكلفه ذلك مبلغا كبيرا من المال ... طبعا نادر شاب في اواخر مرحلته الدراسية الثانوية ، فهو لا يزال يتحـايل على والده بكل الاساليب ليستطيع ان يأخذ منه اكثر من خمس ليرات ، مصروفه المقرر له في الاسبوع ـ طبعا هذا المصروف لا يكفيه اجرا للاتوبيس، وشفرات الحلاقة، وبعض السكائر التي يدخنها خفية في البيت وعلانيـة خارجه ... هذه المشكلة ـ اي تأخره عن الموعـد ـ لم يجد لها حلا سوى الركض ... وعندما وصل الى بـاب الحديقة ، شعر كأن شيئا ما يمزق رئتيه . فاضطر الى أن يتمهل في سيره الى فتاته ... / لنختر أيضا اسما لها ، لنجعله « ريا » ، طبعا هذه ليست ريا الصغـيرة التي تحدثنا عنها في وقائع قصة « الاطفال » ، انما هذه فتاة في اخر دراستها الثانوية ، طبعا هي جميلة ، اشبه بزهر البراري/. عندما تلاقى نادر وريا، ابتسما. فضغط كل واحد منهما على يد الاخر عندما تصافحا ، قال نادر:

ـ كدت ان اتأخر عليك ...

ابتسمت له ، وسارا معا ، ما لبث ان اختار اقرب كرسي اليهما وجلسا عليه ، وكل واحد منهما يتأمل وجه الاخر . غرق نادر في ذاته وهو يكابد المشاعر والعواطف الجياشة التي راحت تجتاح اعماق قلبه ، فابتسم لهـا وحاول ان يعبر لها عن كل الاحاسيس والمشاعر الـتي يحس بها تجاهها ... ولكن غيمة ما ، سوداء ، قاتمة، راحت تحلق فوق راس « ريا » ، فرفع نادر وجهه اليها، فتلاقت عيناه بعيني ضابط . كان الاخير يمشي بخطوات عسكرية متزنة ، قوية ، كأنه في استعراض لجنـــود مقبلين على تنفيذ مهمة قتالية .

وعندما اقترب الضابط منهما ، شعر نادر بخوف من ان يتقدم منهما ، ثم يمسك بيد « ريا » ، ويجرهـا وراءه ، لان الضابط كان ينظر اليهما بنظرات بـــاردة كالموت .

٣ ـ البستـان .

عزيزي القارىء : وقائع هذه القصة ، اي قصـة البستان ، سأتركها للذي وقعت معه كي يسردها لك ..

ولن اتدخل ، الا في بعض الحالات الاستفسارية التي قد يتطلبها الموقف . لقد عرفني الرجل على نفسه قائلا :

ـ اسمي نادر ... / طبعا غير نادر ، الشاب الذي تعرفنا عليه في وقائع قصة «الحب» ، انما هذا في الخامسة والاربعين ، أي رجل ناضج بكل معنى للكلمة / تابع : انا عائد الان من عملي الاضافي . انت تعلم ظروف الحياة المعيشية القاسية هذه الايام . لقد باتت لا تطاق، مما يجبر الانسان على ان يشتغل عملا اضافيا ، علاوة على عمله الاصلي ، ليستطيع ان يؤمن الحاجيات الضرورية لعياله ... فانا اليوم قبضت اجرتي الاضافية ـ عادة اقبضها في آخر كل اسبوع .

وابتسم الرجل ابتسامة رضاء :

ـ عندما عبرت الحديقة ، وامام بابها الرئيسي وجدت نفسي أمام دكان لبيع الفاكهة .../ يقصد محلات البستان للفاكهة . /كانت رائحة الفاكهة منتشرة معالليل، رائحة ذكية ، تنعش النفس . واصوات الاولاد ترتفع في رأسي ، وهم يطالبونني بشراء الفاكهة / طبعا لم تطن أصواتهم في هذه اللحظة من الليل بالذات ، انما هي تطن منذ أكثر من شهر ... / ولكن كما تعلم ، هناك دائما امور ضرورية ، اهم بكثير من شراء الفاكهة ، وما شابه ذلك . الا انني قررت شراء كمية منها للاولاد . تقدمت من الدكان ، ما لبثت ان وقفت مدهوشا . كل ما يخطر ببال الانسان من الفاكهة كان موجودا . لقد احترت ماذا اشتري ؟ وماذا لا اشتري ؟ غسان طالبني بالتفاح ، ونادر طالبني بالموز ... / التفت الي الرجل ، وقال ، وعلى وجهه ابتسامة : ارجو ان لا تختلط بيني، وبين ابني ، فاسمه نادر بدوره . انه على اسمي ، ولي ابنة اسمها ، ريا . انها علىاسموالدتها ايضا .

سألته للتأكد : هل هذا يعني ان اسم زوجتك، هو ريا ؟

ابتسم الرجل،وقال نعم.../ طبعا عزيزي القارىء، اسم زوجة الرجل ليس له علاقة باسم ريا التي سماها صديقنا « نيروز » ، في وقائع قصة « الحب » ، ريا تلك كانت شابة في اول عمرها . اما هذه ، فلن يقل عمرها عن الخامسة والثلاثين، لان زوجها يقارب الخامسة والاربعين . / تابع الرجل : أما سمير ، فكان يطالبني بالعنب، انه يحب العنب كثيرا . اما صفاء الصغيرة، وهي اصغر اولادي ، فهي تحب الخوخ ، حتى ان الاولاد في البيت يسمونها بالخوخة ... وضحك الرجل بارتياح :

ـ اما انا ، وأم العيال ...

وكتم حديثه هنيهة ، وهو يبتسم بخجل ، ثم تابع :

ـ .. فاترك الامور على الله . كان لا بد لي ان اشتري حسب ما يريده كل واحد من الاولاد . طبعا ليست لدي المقدرة على شراء كيلو غرام من كل صنف، فاكتفيت بشراء نصف كيلو من كل صنف . ثم وضعت الجميع في الكيس الكبير الذي اعطانيه صاحب الدكان .../يقصد محلات البستان للفاكهة /... كنت لحظتها منحنيا ـ تابع الرجل ـ ارتب الاكياس الصغيرة داخل الكيس الكبير عندما وجدت قامة لرجل ما تقف قرب رأسي حتى ان بنطاله ، قد لامس رأسي ، بحيث لو رفعته . لاصطدم بساق الرجل . شعرت بغضب داخلي، وانا اقول لنفسي : يا له من رجل قليل الذوق ! الا يستطيع ان يقف بعيدا عن رأسي دون ان « يحشرني » بين صناديق الفاكهة وساقيه ؟ وعندما امعنت النظر في حذائه ، عرفت فيه حذاء عسكريا ، ثم امعنتالنظر في لون بنطاله . فكان لونه كلون ثياب العساكر .

رفعت رأسي متفاديا الاصطدام بساقه، فاحسست بألم في عنقي . وعندما وقفت بكامل قامتي ، كان الرجل ضابطا يضع على كتفه اكثر من نجمة لماعة . لقد كنا وجها لوجه ، لا تفصل بيني وبينه سوى سنتيمترات قليلة . كان ذا نظرات متعالية ، شامتة :

كان قد سد علي الطريق تماما ، فبقيت محاصرا بين صناديق الفاكهة وقامته . شعرت بغضب في كامل بدني . ففكرت ان ارفع يدي واضعها على صدره ، ثم ادفعه بها الى الوراء ليتسنى لي المرور . ولكني لم افعل، انما رفعت ساقي وخطوت بها الى الامام . فوطئت بقدمي حذاء الضابط ، فرماني بنظرة باردة كالموت . ولكني لم اعر نظراته التفاتا . وعندما خطوت خطوتي التالية، اضطررت ان ادفعه بصدري ، فانزاح عن طريقي ، وانا ارميه بنظرة باردة حتى اختفى وجهه عن نظري تماما . فتابعت طريقي بارتياح الى البيت .

حلب